مصادر الأمثال وأماكنها

على الرغم من أن الإهتمام بالمثل العامى لدى المحدثين بدأ من القرن الثامن عشر فإن الذين اهتموا بالجمع لم يخرجوا عن القاهرة، ذلك لأنهم ينتمون بالضرورة إلى الصفوة المثقفة التى كانت تتركز فى القاهرة، ولم تكن عملية الجمع تعبر عن اتجاه فكرى تدفع إليه ضرورة سياسية أو ثقافية بقدر ما كانت ـ كما قيل فى مقدمة إحدى المجموعات ـ لتمضية أوقات الفراغ، بل إن أول مجوعة ظهرت ـ وهى مجموعة شرف الدين بن أسد[1] ـ لم تكن إلا أوراقًا مهملة لا تثير الاهتمام.. ويرجع ذلك إلى سببين:

الأول: هذه الأمثال لم تكن تجذب مثقفى هذه العصور الذين كانوا عاكفين على الثقافة الدينية الجادة، ولم يكن هناك ضرورة لشيوع مثل هذه الأساليب التى كانت تحتوى على ألفاظ مسفة قد لا تتفق مع ضوابط السلوك والآداب.

الثانى: هذه الأمثال لم تكن يلقى اهتماما من أصحابها لأنهم لا يمثلون ثقلا ثقافيا، كما كانوا دوما يعيشون مشاكلهم اليومية وليس لديهم وقت للاهتمام بذلك، كما لم تساعدهمم إمكاناتهم على تسجيلها.

ومع ذلك فإننا سوف نجد مجموعة يوسف خانكى يكتب مقدمتها الميجور براون وهو ضابط إنجليزى، وأن جون لويس بوركهارت عندما نشر مجموعة شرف الدين ابن أسد اهتم بترجمتها مع شروح وتعليقات إلى الإنجليزية.

(١) نشر بوركهارت أجزاء منها . وقد قام مؤلف هذه الموسوعة بترجمة نشرة بوركهارت عن الإنجليزية إلى العربية ونشرت فى سلسلة الألف كتاب الثانية العدد رقم ٧٣ سنة ١٩٨٩ . واعيد طبعها فى مكتبة الأسرة وطبعت ايضا مرة ثانية فى سلسلة الألف كتاب.

ولقد قرأنا فى كثير من المقدمات أن أصحابها قد نزلوا إلى القرى والبوادى، ومنهم من خالط الشعب ما بين سكان القرى والمدن، ومنهم من إمتزج بالكثير من الناس على اختلاف طبقاتهم ونحلهم، ومنهم من بث الوسطاء الذين ذهبوا إلى المقاهى وإلى القرى والدساكر، إلا أن ذلك لم يكن صحيحا لأن الذى يتابع المجموعات كلها يمكنه أن يلحظ بسهولة أن الريف لم يكن له مكان فى هذه المجموعات، فكل مجمموعة تعبر عن اتجاه معين، ومن ذلك مجموعة يوسف خانكى التى تعبر عن طبقته الخاصة التى تعايش الحكام فى الأندية والمجتمعات الراقية، فجاءت المجموعة ترسم حدود التعامل مع الأمراء والسلاطين وتدعو الى الملاينة والنفاق والجبن وإنعدام الشخصية. ومجموعة الباجورى التى تتحدث عن الطبقة الوسطى فى القاهرة. ومجموعة شقير التى تعبر عن رحالة لم يمتزج بالشعب المصرى ولم يعايش الطبقات الدنيا أو يعرفها، فنراه دومًا يتحدث عن المصريين من الخارج ويهتم بالأمثال التى يقولها الأجانب عن المصريين.

ومجموعة شكرى التى تعبر عن الطبقة الدنيا فى القاهرة دون أن تخرج إلى الريف. وكذا مجموعتى تيمور وفايقة حسين، حيث تعبر بوضوح عن اتجاهات خاصة، وقد أشرنا إلى ذلك عند الحديث عنهما.

تخلص من ذلك إلى أن الريف المصرى لم يشهد غزوات كانت مطلوبة منذ زمن للبحث بين صناع الحياة المصرية عبر التاريخ عن هذا الذى انتقل شفاهًا عبر الأجيال، ولهذا فقد وجهت اهتمامى نحو ريف الوجه البحرى وبخاصة منطقة زفتى وهى مسقط رأسى وأضفت إليها مناطق السنبلاوين والمنصورة والمحلة. وهذه المناطق عبارة عن مثلث رأسه فى زفتى وقاعدته تنحصر بين السنبلادين والمحلة وشمل هذا المثلث بالطبع سمنود واجا ويمكن أن يتحول المثلث إلى دائرة مركزها مدينة زفتى نصف قطرها حوالى ثلاثين كيلومترا. فيتجه جنوبا إلى بنها وجنوب غرب إلى شبين الكوم وشرقا إلى الزقازيق وغربا الى طنطا.

* * *

ويمكن القول إن كثيرا من هذه الأمثال لا تقتصر على منطقة بعينها، فهناك

مجموعات كبيرة من الأمثال التى تشيع فى مختلف المناطق. وقليل منها تظهر فيه المحلية مثل: «الفرح فى صندفا وأهل المحلة متحففة»، «يا رايح حنوت خد غداك لتموت»، «زى عويعه محشور فى كل بيعه». وهذه الأمثال برغم محليتها الواضحة نراها تشيع خارج مناطقها ولكن بصور مختلفة مثل «يا رايح العايشة لقمتك بايشه»، «يا رايح بدسا خذ غداك لتنسى»، وقد لا يزيد الاختلاف عن كلمة أو كلمتين وقد لا يتعدى اختلاف النطق.

وهذه المجوعة نتيجة الاحتكاك المباشر بالقطاعات العريضة من عامة الشعب، مثل الشيخ الأشيب المعمم الذى ركب معى من زفتى إلى طنطا بالمصادفة، وقال لى فى معرض الحديث عن نفسه «إننى أنتمى إلى الرفاعية ونحن نمسك الثعابين والحيات». ولما سألته عن ذلك قال: «لأننا نتبع مدرسة «الكاف والنون» «كن»، وهى مشتقة من قوله تعالى.. «كن فيكون». والصوفى الآخر الذى قال عن الصوفية: «وكلهم من رسول الله ملتمس»: والفلاح الذى أخذ يشرح لى الأمثال الريفية وخاصة تلك التى تدل على جزئيات المهنة مثل «الزرع واحد لكن الأرض محطات»والطحان والنجار الذى قال لإبنه أمامى: «ستين مقاس ولا قطيعة منشار» «اللى تقطه أحسن من اللى تمطه» والحداد الذى قال «كف لحم ولا كف فحم» والأفندى الشاب الذى يتردد على قريته من حين الى آخر وركب معى وقال: «إن كنت غاوى ومشتاق طول لابويا الأشلاق»، «عامل زى أغربة كوم النور» وحماتى التى لا تتحدث إلا بالمثل واشتقت مثلا جديدا فقالت: «من قلة حيلها ومروتها عملت الأومو صنعتها»[1] أخذته من المثل «من قلة حيلها ومروتها عملت الطبة صنعتها».

وعلى الرغم من إننى أحد أبناء هذه المطقة ولم أنفصل عنها حتى الآن إلا أن عملية الجمع لم تكن ميسرة فى كثير من الأحيان، ذلك لأن هذه البيئات لا تدرك أهمية الأمثال لأنها تصدر عفويا، كما أنها جزء من التعامل اليومى الذى لا يشد انتباه الناس، وعندما كنت ألجأ إلى أفتعال المواقف يحس الروى بأهمية ما ردده، ومن ثم توحى أفعاله برغبته فى مقابل فيلجأ الى التسويف والتهرب. ومع ذلك فقد لمست مساعدة صادقة من كل من قابلتهم أو تعاملت معهم.

(١) مسحوق غسيل. ظهر أخيرا.

وتعد المرأة من أهم المصادر لهذه المجموعة. ويلاحظ فى هذا الصدد أن هناك مجموعة من السيدات يجدن حفظ الأمثال وضربها واستخدامها بمهارة: إذ يتميزن باللباقة وحضور البديهة، وتستخدم هذه الأمثال بينهن بدرجات متفاوته، والسيدة التى تجيد ضرب المثل تسيطر على الحديث والحوار مع الغير، والمثل فى هذه الأحوال يساعدها على تأكيد رأيها أو استمالة الموجودين. وتتكون الحصيلة المثلية عند المرأة نتيجة الإختلاط، يساعد على ذلك الموهبة الفطرية؛ لأن المثل عندما يلقى على الأسماع ينتقل إلى الموجودات بدرجات متفاوته حسب الاستعداد النفسى والفطرى، كما تتدخل فى ذلك عوامل اجتماعية ولغوية، ويتوقف انتشاره على جودته وحسن وقعه فى النفوس.

ولقد حاولت أن أسجل هذه المجموعة كما قيلت، إلا فيما يتفق مع حدود الضبط الضرورى كما يظهر فى الحرف. «ق» فى كلمة «قال» حيث يستبدل العامى هذا الحرف بحرف «الألف»، وفى بعض الأحيان كنت أسجل مجوعة تنتمى إلى بيئة معينة فى مكان معين وأعود بعد فترة لأسجل ما قد يطرأ من اختلاف ثم أسجل النص الجديد.

فالمثل الذى يقول «زى عويعة محشور فى كل بيعة» ربما كان أساسه «زى الملح محشور فى طعام»، وقد شاع المثل فى ميت غمر وأطلق على أحد التجار يسمى «عويعة» وكان يتدخل بماله فى المزايدات، وربما شاع مثل هذا القول فى بيئة الصيادين فيقال «زى السمك محشور فى كل أكل»، وهكذا يدخل المثل إلى البيئات فيتشكل حسب البيئة وظروفها الإجتماعية، وقد يخرج منها بصورته الجديدة ويشيع فى بيئات أخرى بنفس الصورة التى خرج بها، وعلى أى الأحوال فإن الأمثال تعبر عن حركة لغوية واجتماعية متطورة بشكل مستمر.

أماكن المثل

لقد ورد كثير من البلدان فى بعض الأمثال ولكنها لم تكن من مراكز التجميع المثلى، ذلك لأنها إما وردت بطريق المصادفة وسجلت فى حينها أو أنها شاعت فى مناطق غير مناطقها. ومن ذلك: «إذا غضب الله على قوم أسكنهم بنها وشبين الكوم»، فقد سمعت هذا المثل فى محطة بنها قاله أحد الأشخاص فسارعت

بتسجيله، المثل «يا رايح الخانكة على حمار..» فقد سمعت هذا المثل يتردد كثيرا فى زفتى. وكذا مثلى الهجاء بين القاهرة والإسكندرية، فقد روته لى إحدى بنات الإسكندرية.

وعلى ذلك فمن المهم أن يدور حديثنا حول مراكز تجميع المثل الحقيقية، وهذه لا تتعدى مدينة زفتى وقراها، وهذه المنطقة استأثرت بالكثرة الغالبة من المجموعة، وهذا وضع طبيعى حيث أنها موطن الأجداد ومهد الطفولة والشباب ومازلت أتردد عليها وأتابع كل ما يدور فيها ويطرأ عليها من تغييرات، وما يقابلها من مشاكل أو تغييرات اجتماعية، وأضفت إلى هذه المنطقة ميت غمر وكثير من قراها والسنبلاوين والمحلة وبعض البلاد حول المنصورة.

ولذلك يمكننا القول بأن هذه المجموعة تعبر عن منطقة تحتوى على أكثر من ثلاثة ملايين من السكان يعيشون[1] على رقعة من الأرض الزراعية مثلثة الشكل رأسها زفتى وقاعدتها تنحصر بين السنبلاوين والمحلة مارة بالمنصورة[2] نصفها الشرقى فى محافظة الدقهلية والغربى فى محافظة الغربية[3]، يمر فى وسطها من رأس المثلث عند زفتى إلى القاعدة عند المنصورة نهر النيل فرع دمياط مجتازا منطقة رسوبية بفضل مياهه التى كانت تفيض كل عام فتجدد خصوبة الأرض وتزيد من إنتاجها المحصولى[4].

ويمكن تقسيم هذه المنطقة إلى رقعتين زراعيتين: إحداهما حول رأس المثلث وهى منطقة زفتى وميت غمر، والأخرى تشمل قاعدة المثلث وهى تمتد من السنبلاوين إلى المحلة وهى أقل خصوبة من الأولى ويزرع بها المحاصيل التقليدية، كالقمح والذرة والقطن، ولكنها تشتهر على وجه الخصوص بزراعة الأرز كما تمتاز باتساع الرقعة الزراعية إذا قورنت بالمنطقة الأولى.

---

(١) كان هذا منذ أكثر من عشرين عاما.

(٢) تبلغ المسافة بين زفتى والسنبلاوين ٣٠ك.م؛ والمسافة بين السنبلاوين والمحلة ٦٠ك.م، والمسافة بين المحلة وزفتى ٣٨ك.م.

(٣) لا يعنى ذلك أن هذه المنطقة هى المصدر الوحيد للمجموعة، فقد جمعت بعض الأمثال من محافظة المنوفية وبعضها من محافظة الشرقية، وخاصة المناطق التى تتاخم مراكز التجميع، وبرغم ذلك فإن ما جمعته من هذه الأماكن لا يتعدى بضع عشرات مما لا يمكن أن يؤثر على الالتزام المكانى للمجموعة.

(٤) توقف الفيضان نهائيا بعد إنشاء السد العالى جنوب أسوان وانتهى العمل فيه فى يوليو سنة ١٩٧٠.

زفتـــى:

وفيما يتعلق بمنطقة زفتى وميت غمر فقد ظلت مياه النيل تمر فيها بين زفتى التى تقع على الضفة الغربية للنهر وميت غمر التى تقع على الضفة الشرقية فى مواجهتها منطلقة إلى البحر المتوسط عند دمياط دون عائق، إلى أن قامت الحكومة سنة ١٩٠٢ بإنشاء قناطر زفتى[١] وهى تقع فى منتصف المسافة بين القناطر الخيرية ونهاية المصب وذلك لحجز مياه النيل فى فرع دمياط للاستفادة منها فى وجوه الرى على مدار السنة فى قطاعى وسط الدلتا وشرقها، وكان لوجود هذه القناطر الفضل الأكبر فى إخصاب هذه المنطقة حتى لتعد من أخصب الأراضى المصرية كلها، وكان لذلك أثره الكبير على الحياة الاجتماعية والسكانية مما سنثير إليه عند الحديث عن الحالة الاجتماعية والسكانية.

هذا وتعد هذه السنة (١٩٠٢م) نقطة تحول كبيرة فى تاريخ زفتى وميت غمر وذلك عندما شب حريق هائل أتى على ميت غمر كلها حتى لقد فر أهلها إلى مختلف الجهات ولم تهدأ النار إلا بعد عدة أيام[٢].

هذا الحريق لم يكن الأول فى حياة ميت غمر فقد أورد على مبارك فى «الخطط» نقلا عن ابن إياس أنها أحرقت فى يوم الثلاثاء خامس صفر سنة ٩٢٤، ذلك إن عرب الشرقية قاموا على قدم العصيان فى تلك المدة وتعدوا الحدود فى الفساد وكان رئيسهم شيخ العرب عبد الدائم بن بقر، فسطابهم على ناحية ميت غمر فأحرقها بعد نهبها»[٣].

(١) تتكون هذه القناطر من خمسين قنطرة وهى تقع شمال مدينة زفتى بثلاثة كيلو مترات وقد امتد العمران حتى اقترب منها وخاصة بعد إنشاء مصنع زفتى للنسيج، ويمر أمام هذه القناطر الرياح العباسى الذى يمتد فى وسط الدلتا ليغذى بحر شبين غربا، وترعة البوهية شرقًا التى تمتد شمالا وتمر بمدينة السنبلاوين، كما تغذى الرياح التوفيقى بعد ميت غمر. وبعد قيام الثورة مباشرة فى سنة ١٩٥٣ عهدت الحكومة الى إحدى الشركات الألمانية بتوسيع القناطر وتقويتها وقد تكلف هذا المشروع عدة ملايين من الجنيهات، وتقوم وزارة الرى فى هذه الأيام بعدة مشاريع أمام القناطر تكلفت مئات الآلالف ويطلق الناس على هذه القناطر اسم «الخمسين عين».

(٢) حدثنى جدتى منذ أكثر من ٣٥ عاما عن هذا غرابة هذا الحريق فقالت إنه كان يخبو فى جهةولشب فى جهه: أخرى دون ما سبب. وقد يبدو للبعض أن الحريق قد انتهى فى جهة فيتركونها إلى الأخرى ثم يفاجأون بعودته إلى نفس المكان. وهكذا ظلت النار كامنة فى البلد حتى هرب أهلها وكان ذلك فى زمن التحاريق. وأضافت أن كثيرا من الأهالى قد نصبوا الخيام فى قاع النهر حيث لا يوجد مياه فى ذلك الوقت وكنا نذهب إليهم لتقديم المعونات وغيرها.

(٣) الخطط التوفيقة الجديدة لمصر والقاهرة وبلادها القديمة والشهيرة لعلى مبارك ـ الطبعة الأولى سنة ١٣٠٦ بولاق جـ١٦ ص٧٩.

ومنذ بداية هذا القرن تقلص نفوذ زفتى إلى خد ما واتسع النشاط فى ميت غمر. ومقارنة بسيطة بين عدد السكان فى المدينتين فى أول هذا القرن وفى آخر إحصاء سنة ١٩٦٠ تؤكد ذلك، فقد كان سكان مدينة زفتى سنة ١٩١٧ ـ ١٨ ألفا وميت غمر ١٦ ألفا، وفى سنة ١٩٦٠ بلغ عدد سكان زفتى ٤٢١، ٣١ وعدد سكان ميت غمر ٠١٦, ٤٠، وهذا الوضع يشير إلى أنه لم تكن هنا نهضة صناعية تواكب عدد السكان فاضطروا إلى الهجرة طلبًا للرزق وقد تقلص أيضا هذا النفوذ فى المركز كله، فلقد كان من المراكز الكبرى اتساعًا وسلطة عندما أخذت التقسيمات الإدارية على مدى السنين تضم مجموعات من القرى إلى المراكز المجاورة، حتى أنه لم يزد أقصى بعد شمالا عن ١٢ك.م. وجنوبا عن ١٤ك.م. وغربًا عن ٧ كيلو مترات ويحده شرقًا نهر النيل.

ويكفى أن نعرض هذا الجدول الإحصائى للسكان منذ سنة ١٨٨٢ حتى سنة ١٩٤٧[1].

السنة	١٨٨٢	١٨٩٧	١٩٠٧	١٩١٧	١٩٢٧	١٩٣٧	١٩٤٧
مركز زفتى	٨٤,٦٨٤	١١٧,٥٢٩	١٣٤,٢٠٧	١٤٧,٩٨٧	١٥٢,٠٠٧	١٥٦,١٥٩	١٥٦,١٨
نسبة الزيادة	—	٪٢,٦	٪١,٤	٪١,٠٠	٪٠,٣	٪٠,٣	صفر٪

أى الزيادة فى الفترة من ١٩١٧ إلى ١٩٤٧ لم تزد علي ثمانية آلاف نسمة بينما لم تتضاعف فى ستين عامًا.

هذا فى الوقت الذى زاد فيه بندر المحلة الكبرى سنة ١٩٤٧ بنسبة ٨,٣٪ والمركز ١,٨٪ وطنطا ٥٪ والزيادات فى المراكز المجاورة بنسب تتفاوت على حين توقفت نهائيًا فى مركز زفتى، معنى ذلك أن هناك عمليات طرد مستمرة وهذا الطرد يتساوى مع الزيادة السكانية.

وفى المدينة تقلصت الحركة الصناعية أيضا فكان بها فى أوائل هذا القرن سبعة

(١) نشرة الجهاز المركزى للإحصاء ١٩٦٠.

محالج تقوم بحلج جميع الأقطان التى تزرع فى منطقة وسط الدلتا والشرقية ونقص هذا العدد إلى أربعة، وهناك اتجاه إلى التخلص من أحدها، وبالفعل فقد توقف العمل فى محلج «كلوفس» منذ بضع سنوات. والعجيب أن هذه المحالج التى تتوقف وتنتقل إلى بلاد أخرى تأخذ معها عمالها وموظفيها من أهل البلد[١].

ويلاحظ أن شهرة زفتى فى الحلج والنسج لم تكن وليدة هذا القرن، ذلك لأنها كانت تشتهر به منذ عصر محمد على، فيخبرنا صاحب الخطط التوفيقية أنه كان بها «جملة أنوال لنسج الأقمشة وثلاث وابورات الحلج القطن، وفى جهتها البحرية ورشة على شاطئ النيل بنيت فى زمن محمد على باشا سنة ١٢٤١ وكان ينسج فيها أنواع البفت الخام والأبيض»[٢].

والوضع الطبيعى أن تتطور هذه الصناعات وتنمو وتستقطب كثيرًا من أوجه النشاط فى هذه المنطقة فتنتشر مصانع النسيج وتنمو تجارة الأقمشة فيتسع البلد وينمو نموًا طبيعيًا، ولقد لاحت الفرصة لذلك بعد سنة ١٩٢٠ عندما فكر طلعت حرب فى أن يقيم مصنعًا للغزل والنسج ودرس كبار المساهمين فى بنك مصر فكرة إقامته فى زفتى وكان المحرك لذلك هو إسماعيل صدقى باشا أحد رؤساء وزارات ما قبل ثورة/ ١٩٥٢ ومن كبار المساهمين فى بنك مصر رغبة منه فى خدمة أهل بلده[٣]، ولكن التعصب الحزبى فى فترة ما قبل الثورة أطل برأسه، فاتجه طلعت حرب ورفاقه إلى المحلة الكبرى فأنشأ بها مصنع غزل المحلة والذى غدت به المحلة أكبر قلعة للصناعة فى مصر، بل من أكبر مدن مصر عامة.

ولم يكن انتشار المحالج فى البلد وليد المصادفة ولكنه كان بناء على ميزات فى المنطقة لا تتوافر فى غيرها من المناطق، منها: خصوبة الأرض وتوفر المياه فاتجه الأقطاع إلى زراعة القطن التى كانت تحقق ربحًا سريعًا، وهكذا انتشرت تجارة القطن انتشارًا كبيرًا وامتلك زمامها اليهود واليونانيون والأورام وتكونت جالية كبيرة من هؤلاء الأجانب لم تكن تمارس غير تجارة القطن. ونشأت معها المدارس

(١) من هذه المحالج محلج زكيتو بارده الذى انتقل إلى قرية «أبو الشقوق» مركز كفر صقر شرقية بعماله وموظفيه من أهالى زفتى الذين استوطنوا البلد وما زالت هناك عشرات العائلات التى تقيم هناك حتى الآن وطابت لها الإقامة.

(٢) الخطط التوفيقة على مبارك ج١١، ص٩٤

(٣) إسماعيل صدقى باشا من أبناء قرية الغريب مركز زفتى.

والمستشفيات الأجنبية[1]. وفى ميدان الحلقة (حلقة القطن)، وكانت تمارس عمليات بيع القطن وشرائه وما يتبعها.

وكان من الممكن أن تعمل تجارة القطن على تطوير البلد اقتصاديًا واجتماعيًا لو ظل رأس المال فيها وكملت دورة نموه فى التجارة والصناعة بالمنطقة، ولكن رأس المال الذى نما بسرعة غريبة هاجر بنفس السرعة إلى المجالات المأمونة التى لا تخضع لتقلبات البورصة والمضاربات الشيطانية[2]، وكانت هناك الظروف الخارجية التى تساعد على ذلك. منها إعادة تجديد ميت غمر، واقتراب البلدمن عواصم المحافظات[3] وتفتت المساحات الزراعية الكبيرة كل ذلك ساعد على هروب رأس المال. على أن هذه الرأسمالية التى تواجدت فى البلد بسرعة نتيجة للمضاربات على القطن كانت حريصة على تحويل أرباحها خارج البلد فى شكل عقارات وغيرها ولا شك أن هذه الظاهرة ـ ظاهرة المال الطيارى ـ كانت جزءاً من الظاهرة العامة التى كانت تسود مصر كلها فى ذلك الوقت وهى أن الرأسمالية التى تكونت بين الحربين العالميتين وعلى رأسها الرسمالية الأجنبية كانت حريصة على تأمين رأس المال بتحويله إلى أماكن أكثر أمنا، وقد كانت هذه الظاهرة أكثر وضوحاً فى مدينة زفتى حيث كان رأس المال يكاد يكون مملوكًا بالكامل للأجانب وكذلك كل ألوان التجارة[4] التى تدور مع حركة تجارة القطن وحلجه وتصديره.

---

(١) كانت بالبلد منذ عدة سنوات مدرسة يونانية كان يطلق عليها أهل البلد لا سكُولا (Lecole) ومستشفى أجنبى تديره الراهبات يطلق عليه «السبع بنات».

(٢) يشيع فى البلد مثل على تاجر القطن فيقال «تاجر القطن يلْبس جبة وقفطان يا بشت للركب» ومعناه إنه إما أن يثرى ويلبس أفخر الثياب وإما أن يفتقر ولا يجد ما يلبسه ـ البشت: بالطو من صوف الغنم بدون أكمام يصنعه الفلاح على النول اليدوى يتدثر به شتاءا.

(٣) تبعد الزقازيق عن زفتى ب٢٥ك.م، والمحلة شمالا بـ٣٥ك.م، وشبين الكوم جنوب غرب ب ٢٧ ك.م، وبنها جنوبًا ب ٢٧ ك.م.

(٣) حكى لى والدى ـ رحمه الله ـ أن أول محل تجارى افتتحه أحد المصريين فى زفتى ضايق الأجانب أصحاب المحلات الموجودة وفى أعقاب افتتاح المحل تقدم من صاحبه أحد الأجانب يهنئه وقال له يا حاج أحمد: بمجرد فتح هذا المحل لم يعد لنا عيش فى هذا البلد. وبالفعل لم تمض عدة سنوات حتى اجترأ الأهالى على التجارة وتناقصت التجارة فى أيدى الأجانب وانتهت تماما مع العدوان الثلاثى سنة ١٩٥٦. بل وانتهى وجود الأجانب بخروج آخر اثنين من اليهود المولودين بها وهما موشيه شولان وايليه شولان فى سنه ١٩٥٦. فى أعقاب العدوان الثلاثى.

ومع هروب رأس المال مال النشاط التجارى إلى التقلص وأخذت الصناعات التى كانت قائمة لتخدم حركة القطن ومستلزماتها تنكمش، ولم يكن بين أبنائها، برغم كثرتهم وانتشارهم واحتلالهم لكثير من المراكز الكبرى منذ القديم، من يتقدم ليجذب إليها أحد المشروعات التى كانت تساعد ـ ولا شك ـ على النمو والتطور[1]، لذا فقد هاجر السكان أفردا و جماعات. يدلنا علي ذلك أنه فى الوقت الذى تضاعف فيه عدد سكان مصر عامة أكثر من مرة منذ الحرب العالمية الأولى نجد أن سكان زفتى لا يزيدون إلا زيادات طفيفة لا تتفق مع النمو الطبيعى للسكان وبمقارنة بسيطة بين تعدادها سنة ١٩١٧ وهو، ١٨ ألفا نسمة وتعدادها سنة ١٩٦٠ وهو ٣١,٤٢١ ألف نسمة تؤكد هذا.

وعلى الرغم من ذلك مازالت هناك كثافة سكانية مرتفعة فى هذه المنطقة حتى ليعد مركز زفتى أكثر المراكز ازدحامًا فى محافظة الغربية إذا استثنيتا مدينتى طنطا والمحلة الكبرى[2]، ويمكن للزائر للمركز إذا وقف فى أى مكان أن يرى عدة قرى فى كل الاتجاهات، كما أن المسافة بين القرية والأخرى لا تزيد عن ثلاثة كيلو مترات، وقد يتخلل ذلك عدة عزب. وقد لا تزيد المسافة بين العزبة والثانية عن نصف كيلو متر، وحول مدينة زفتى التحمت القرى بالمدينة حتى أصبحت رقعة المدينة تشمل قرية دهتورة وكفر عنان وسندبسط وتمتد إلى مسافة عشرة كيلو مترات وتمثل شريطًا على نهر النيل فرع دمياط.

الحالة التعليمية:

يقول على مبارك فى خططه: بزفتى عشرة مكاتب لتعليم الأطفال القراءة والكتابة[3]» ويقول فى مكان آخر: «وأغلب أهلها مسلمون وعدتهم خمسة آلاف وخمسمائة.. وخمس عشرة نفسًا ومساحة سكنها ٦٠ فدانًا[4]». هذا الكلام يشير

(١) أنشأت الدولة بعد سنة ١٩٦٠ مصنعا للنسيج شمال المدينة فى وسط المسافة بين المدينة والقناطر.

(٢) تبلغ مساحة المركز حسب تعداد سنة ١٩٦٠ ٢١٢,٦ ك.م٢ والكثافة السكانية ٩٠٣,٨ فى الكيلو متر الواحد وهى نسبة عالية جدا.

(٣) الخطط التوفيقية/ على مبارك.

(٤) الخطط التوفيقية / على مبارك.

إلى أن النهضة التعليمية كانت قديمة كما أن نسبة انتشار المكاتب إلى عدد السكان كانت كبيرة ولسنا نعرف هل هذه المكاتب نتيجة الجهود الحكومية أم أنها كانت جهودا فردية.

ومهما يكن فقد اتصل انتشار التعليم منذ بداية القرن العشرين وكانت أول بداية النهضة التعليمية الحقيقة تعتمد على النشاط الأهلى وتواصل هذا النشاط حتى هذه الأيام، على أنه لم يكن هناك نشاط حكومى يذكر حتى بداية الثورة حيث أخذ النشاط الحكومى يظهر فأنشأت الحكومة مدرسة التجارة الثانوية ومدرسة الصناعة الثانوية ومركزًا للتدريب المهنى وتولت إدارة أغلب المنشآت الأهلية فأصبحت حكومية، هذا بالأضافة الى مجموعة من المدارس الابتدائية.

ويرجع النشاط التعليمى إلى أهل البلد أنفسهم، إذ أنشأ أحد أثرياء البلد مدرسة كشك الثانوية ١٩٠٥م وأخرى ابتدائية ومعهدًا دينيًا وكتّابًا ومستشفى للرمد وملجأ للعجزة وجامعا للصلاة وتولى الإنفاق على هذه المنشات وأوقف عليها قبل وفاته مآت الأفدنه، وأنشأ الفرنسيون مدارس الإرساليات وأطلق عليها أهل البلد «لاسكولا» وألحقوا بها مستشفى سمى مستشفى «السبع بنات» وتعمل به الراهبات، وألحقوا بها كنيسة، وكذلك أنشأت إحدى السيدات الأجنبيات مدرسة أولية سميت باسمها، وكانت تسمى «مَلَكَهْ» وقد تلقيت تعليمى الأوَّلى فيها، وأنشأ أحد أفراد أسرة الزنفلى مدرسة ابتدائية وبجانب هذا كانت توجد مجموعة من الكتاتيب وأقسام لحفظ القرآن تحول بعضها أخيرا إلى مدارس ابتدائية ومنها مدرسة الجمعية الشرعية. والحصيلة النهائية لهذا النشاط التعليمى تعد كبيرة إذا قيست بغيرها فى أنحاء البلاد، فقد بلغت الحصيلة التعليمية حسب إحصاء سنة ١٩٦٠ ـ ٨٧٢٢ متعلمًا فوق الأمية حتى درجة الدكتواره فى مقابل ١٢٤١٧ أميا ولا شك فى أن هذه النسبة قد زادت خلال السنوات التى تلت هذا الإحصاء إذ أنشئ مدرسة ثانوية صناعية وأخرى ثانوية تجارية ثانوية للبنات، يغذى هذه المنشآت مجموعة من مدارس المرحلة الأولى يزيد عددها على العشرين فى المدينة وحدها.

الجانب الدينى:

إن السمة الغالبة على أهل زفتى هى التدين والورع وحب الخير ولذلك فكل المساجد الموجودة حتى الآن منشآت أهلية وبجهود فردية سواء منها دور العبادة أو المنشآت الخيرية وهذه السمة ليست مقصورة على العصر الحديث ولكنها تمتد إلى الماضى البعيد. بل أن مالفت نظر على مبارك هو انتشار المساجد وما يشيع بين العامة. من معتقدات دينية فقال:

«.. وبها مسجدان قديمان لكل منهما منارة، أحدهما مسجد أولاد الزبير يقال إنه بنى فى زمن عمرو بن العاص، وتزعم العامة أن أولاد الزبير بن العوام مدفونون به وقد أصلح مرارا، والثانى مسجد محمد أبى شرف الدين فى جهتها البحرية. وبها زاويتان للصلاة. إحداهما زاوية أبى العباس الحريثى الصديقى، ويقال إنه من أولاد سيدى عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق رضى الله عنه، وانه هو الذى بناها، والثانية زاوية الشيخ محمد أبى حسب الله الكبير ومقامه بها شهير وقد أصلحت من طرف ذريته، وبها أضرحة لبعض الصالحين كالشيخ أبى طاقية والشيخ الحصرى، والشيخ عبد الله الطوخى، وبها كنيسة للأقباط مشهورة باسم منقريوس أبى سيفين[1].

ولقد فات على مبارك ذكر بعض الأضرحة التى كانت موجودة فى زمنه، كالطيارى، والسبع أعجام، وأبو جوهرى العليمى المسلمى، وغيرها.

ولا شك فى أن هذه المنشآت الدينية كانت تعد كثيرة بالنسبة لتعداد السكان فى القرن الماضى ويدلنا ذلك على أن الوازع الدينى لدى السكان كان دائما قويًا وما تزال هذا المنشآت تمارس دورها الدينى وقد أنشئت كلها بجهود أبناء البلد والمصلحين[2].

ويلاحظ أن هذه المساجد ـ برغم كبر مساحتها حتى أن أصغرها يستوعب أكثر

(١) الخطط. على مبارك.

(٢) يحضرنى بالإضافة الى ما أشار على مبارك ـ جامع النادى، جامع كشك، جامع المصرى، جامع فتوح ـ جامع الجمعية الشرعية، جامع جماعة البر والتقوى، جامع عيد، جامع الشحرى، جامع الفوال، جامع بدر الدين، جامع أولاد عنان. هذا وملحق ببعض هذه المساجد بعض المنشآت التعليمية، مثل جامع المصرى وبه قسم الحفاظ، جامع النادى وبه مدرسة دينية، جامع الجمعية لشرعية وبه مدرسة ابتدائية، جامع البر والتقوى وملحق به مصنع للتريكو للفتيات، جامع الشحرى وبه مدرسة ابتدائية أزهرية.

من ٥٠٠ مصل ـ فإنها تمتلئ جميعها عند صلاة الجمعة، وفى الأعياد والمواسم تقام المهرجات الدينية، كما تقام الموالد لبعض الصالحين كسيدى محمد أبى شرف الدين، وأبى جوهرى العليمى المسلمى وحسين الحصرى وهى موالد تقام سنويا وتمتد إلى عدة أسابيع.

ويقال إن الأرض التى بجانب أضرحة هؤلاء الصالحين مباركة، وتزعم العامة أنه بجانب ضريح: السبعة أعجام، وسيدى الطيارى رقعة من الأرض كانت مساحتها ١٣ فدانًا وكانت متروكة لا يمسها أحد من الفلاحين الذين يجاورونها بسوء إلا وأصيب بمكروه أو راح ضحية ذلك هو أو أحد أبنائه، وكانت تسمى «المراغة»، والسبب فى تسميتها بهذا الأسم أن المرأة العقيم إذا تمرغت على هذه الأرض وقت صلاة الجمعة زال عقمها، ولقد تضاءلت هذه الأرض حتى أصبحت الآن لا تزيد عن نصف فدان. ولقد شاهدت بنفسى فى طفولتى وصباى النساء وهن يتمرغن على هذه الأرض وقت صلاة الجمعة فتتقلب الواحدة على الأرض من أولها إلى أخرها ثم تعيد الكرة عدة مرات.

كما يقال إن الذى يحفر فى هذه الأرض لابد وأن يعثر على دماء، هى دماء هؤلاء الصالحين، ولقد أكد لى بعض كبار السن فى البلد ذلك القول، ومهما يكن فإن ما يشيع بين الناس قد لا يمت الى الحقيقة بصلة وقد يحمل فى طياته ظلالا من الصدق أو الملامح التاريخية، ولكن المؤكد أن هذا التفكير فى حد ذاته يعكس اهتمام الناس بالمعتقدات الدينية والتضحية فى سبيل ذلك.

* * *

ويعد ساحل زفتى على نهر النيل ميناء طبيعيا، ذلك لأنه يحتضن النيل فيتكون قوس يكاد يقترب من نصف الدائرة قطره حوالى ٢كم. ومحيطه حوالى ثلاثة كيلو مترات[١]. لذلك فإن هناك عمليتين يقوم بهما النيل على شاطئيه فى هذه المنطقة، الأولى عملية النحر ويحدث ذلك على شاطئ زفتى، والثانية عملية ترسيب دائمة على شاطئ ميت غمر وقد كان من المألوف ـ قبل بناء السد العالى ـ أن نجد فى أيام التحاريق عشرات المراكب الشراعية راسية على شاطئ زفتى لا تستطيع الحركة إلا مع بداية الفيضان، لذلك يقوم أصابها بعملية الإصلاح فى هذا الوقت وإعادة دهنها بالقار وغير ذلك من عمليات الترميم، وفى هذا الوقت تجرى عمليات تعميق المجرى على شاطئ ميت غمر حتى موعد الفيضان.

(١) حاليا امتد هذا الشاطىء أكثر من عشرة كيلو مترات.

ولقد ربط العامة بين هذه العملية واسم البلد فزعموا أنها سميت بهذا الأسم لأن المراكب الشراعية ـ عندما كانت لها اليد الطولى كوسيلة نقل قبل وسائل المواصلات الحديثة ـ كانت هذه المراكب تبنى فى بنها وتدهن بالقار فى زفتى فأطلق هذا الأسم وقد يكون فى هذا ما يدل على سيطرة نزعات التعليل عند العامة خاصة وأن الاسم يحمل بذور الشر فى مجتمع مازال يخضع لسلطان التطير والتشاؤم.

ومهما يكن فإنه هذا الأسم قد لا يمت بصلة إلى ما زعمه العامة فتحدثنا كتب الجغرافية[1] بأن هذه البلدة من القرى القديمة وذكر إميلينو فى جغرافيته أن اسمها القبطى Zefete واسمها الأصلى منية زفتى كما وردت فى: نزهة المشتاق وكذلك فقد وردت ايضا فى: معجم البلدان ولكنه لم يفرق بين زفتى هذه وبين زفيتة شطنوف بقرب الفسطاط.

وفى موضوع آخر من المعجم قال: منية زفتا فى شمال مصر على فوهة النهر الذى يؤدى إلى دمياط ويقابلها منية غمر، وفى قوانين ابن مماتى وفى تحفة الإرشاد منية زفيتى جواد من أعمال جزيرة قويسنا، وفى مباهج الفكر وفى التحفة منية زفيتى جواد من أعمال الغربية، وفى الانتصار منية زفتى، وتاريخ سنة ١٢٢٨ هـ زفيتى جواد، وفى تاريخ سنة ١٢٦٣ هـ زفتى وهو اسمها الحالى المختصر.

ويبدو أن العوام هم الذين اختصروا هذا الأسم فتخلصوا من كلمة منية وكلمة جواد وأجروا بعض التغيرات فى كلمة زفيتى لكى يتوافق مع اللسان العامى فظهرت باسم زفتا بفتح التاء، وما يلاحظ أن هذا الأسم قديم منذ قدماء المصريين وظل يتردد فى كتب الجغرافيين العرب[2] على مدى التاريخ دون أن يتغير تمّاما.

هذا وعندما أنشئ نظام المراكز كانت زفتى من أوائل البلاد التى تقلدت هذا الاسم فعندما أنشئ قسم زفتى بمديرية الغربية أصبحت زفتى قاعدة له، وفى ١٨٧١ سمى مركز زفتى.

السنبلاوين:

إحدى مراكز محافظة الدقهلية وتبعد عن المنصورة إلى الشرق بحوالى ١٥ك.م وهى من المدن الشهيرة التى تقع فى شمال شرقى الوجه البحرى ومن البلاد

(١) القاموس الجغرافى للبلاد المصرية: محمد رمزى ط دار الكتب ١٩٥٥ جـ٢/ ٥٧.

(٢) معجم البلدان لياقوت، نزهة المشتاق للإدريسى، وقوانين الدواوين لابن مماتى، تحفة الإرشاد، مباهج الفكر، الخطط للمقريزى، الخطط لعلى مبارك وغيرها.

القديمة التى جاء ذكرها فى قوانين الدواوين لابن مماتى وفى تحفة الإرشاد ذكر أنها من أعمال الشرقية. وفى التحفة مع الحمراء من أعمال الدقهلية، وفى سنة ١٨٧١ سمى مركز السنبلاوين[١].

هذا وتشتهر السنبلاوين بزراعة المحاصيل التقليدية وأهمها القطن والغلال والأرز، وقد أشار إلى ذلك على مبارك حيث قال: «وشهرة أهلها بزرع القطن وتكسبهم من التجارة والزراعة»[٢] كما يقول محمد رمزى: «والسبنلاوين من المدن الشهيرة بالوجه البحرى وبها حركة تجارية فى القطن والغلال».

والواقع أن القطن من المحاصيل التى لعبت دورا واضحا فى حياة أهل البلد فأنشى به محلج ونشطت به حركة نقل القطن وهو فى ذلك يشبه زفتى فى نموه وأوجه النشاط الاجتماعى وإن كان يميل إلى الريفية لعدم وجود رأسماليات ضخمة.

هذا ويعد الأرز من المحاصيل الرئيسية التى تنشر فى هذه المنطقة وهو ينافس القطن فى الانتشار. وقد يكون من المناظر المألوفة أن ترى أسطح المنازل مغطاة بقش الأرز الذى يؤدى إلى كثير من الحرائق. وكذلك تنشط حركة بيع الأرز وشرائه كما تكثر الأفراح والزواج، ذلك أن الفلاح لا يستطيع أن يحل مشاكله إلا فى موسمى الأرز والقطن، ويمتد النشاط إلى فروع التجارة الأخرى. وبالاختصار فإن الأرز والقطن من العوامل الهامة التى تنشر الرواج فى هذه المنطقة.

ومدينة السبنلاوين تعد من المراكز المتكاملة ذلك لأنها عاصمة مركز منذ القرن التاسع عشر لذلك نجد بها الخدمات التعليمية فى مجالى التعليم المتوسط، ويتمثل فى المدرسة الثانوية للبنين وأخرى للبنات ومدرسة ثانوية للصناعة وأخرى تجارية فى طريقها إلى التكامل، وكذا المدارس الإعدادية للبنين والبنات، وفى مجال التعليم الابتدائى الذى تبلغ عشر مدارس.

كما تنتشر الخدمات الاقتصادية بما يتفق مع إمكانيات البلد، مثل بنك التسليف الزراعى والتعاونى وبنك مصر ومأمورية الضرائب ومكتب التموين وبعض الجمعيات التعاونية.

---

(١) القاموس الجغرافى ـ محمد رمزى ط دار الكتب سنة ١٩٥٥.

(٢)الخطط التوفيقية ج٢ ص٢٥.

وفى قطاع الخدمات الصحية والثقافية والدينية ورعاية الشباب تنتشر الأجهزة التى تؤدى الخدمات العامة. ومما يلفت النظر ذلك النشاط الثقافى الذى قد لا يتوفر فى كثير من نظرائه من المراكز ويتمثل فى مركز الثقافة الذى قام بتشكيل فريق للتمثيل واخر للموسيقى والغناء وبه مكتبة ويقوم بتنظيم المحاضرات على مدار العام.

كما يتمثل هذا النشاط فى جمعية الآداب والفنون التى تقوم بتقديم عدة مسرحيات فى السنة ويقوم بخدمة هذه الأنشطة المختلفة قطاع الخدمات الاجتماعية والعمالية وقطاع الأمن والقضاء والخدمات الزراعية والنقل.

المحلة الكبرى

المحلة الكبرى أكبر مدينة فى الوجهين البحرى والقبلى بعد مدينة طنطا وسادس مدن القطر المصرى من حيث عدد السكان[1]، ويرجع الفضل فى ذلك لبنك مصر الذى أنشأ شركة مصر للغزل والنسيج فى المحلة فى مايو سنة ١٩٢٧، ومنذ هذا التاريخ بدأ العصر الذهبى للمحلة حتى أصبحت قلعة صناعة الغزل والنسيج فى مصر، وتحولت من مركز متواضع الى مدينة كبرى بها فى قطاع صناعة النسيج وحده ما يزيد على ٢٠٠ مصنع للقطاع الخاص[2] تقوم بتشغيل آلاف العمال بجانب مصنع شركة مصر الذى يقدر عدد عماله بعشرات الآلاف.

ولا شك فى أن هذه الزيادة الضخمة فى عدد السكان ليست نتاجًا طبيعيًا ولكنه نمو مجلوب مما حولها ومن الطبيعى أن تكون زفتى وغيرها من المدن والقرى المجاورة مددا عماليا تقدم للمحلة جزاءا هاما من العمال على مدى السنين حتى الآن ففى زفتى تنتشر الورش المكانيكية يتربى فيها الصبية وعندما يحصلون على قدر معقول من المهنة يشدون الرحال إلى المحلة ففيها متسع للعامل الماهر والصبى والعامل غير الماهر، وإذا كانت السنبلاوين وهى بلدة صغيرة قد امتصت مثل غيرها

(١) إحصاء مدينة المحلة الكبرى حسب تعداد سنة ١٩٦٠ ١٧٨,٢٢٨ نسمه وتلى القاهرة والإسكندرية والسويس وبورسعيد وطنطا وتزيد عن المنصورة التى يبلغ عدد سكانها حسب التعداد السابق ١٥١,١٩٢ نسمة.

(٢) مجلة عمالنا مجلة إقليمة صدرت لمناسبة عيد العمال سنة ١٩٧٠ وضمت بيانات عن أوجه النشاط فى محافظة الغربية وقد زاد تعدادها فى هذه الأيام على نصف مليون.

عدة عائلات فإن المحلة قد امتصت مئات العائلات وما زالت تمارس هذا الدور حتى الآن، ولا يقتصر هذا على صناعات القطن ولكنه يمتد إلى مختلف الأنشطة ـ حتى الرياضة فإننا نجد كثيراً من رياضى المحلة من أبناء زفتى.

ولسنا نريد الإفاضة فى الحديث عن المحلة لأنها تقوم بدور ثانوى فى إمدادنا بمجموعة الأمثال ولكنها تكون ضلع القاعدة فى المثلث كما أنها تحتاج إلى دراسة اجتماعية وجغرافيه واقتصادية متكاملة. ولكننا نكتفى بما قاله محمد رمزى من أن المحلة «من المدن المصرية القديمة ذكرها أميلينو فى جغرافيته ص ٢٦٢ فقال إن اسمها الأصلى Didouseya ديدوسيا وانها وردت كذلك فى كتب القبط باسم Dakala، ووردت فى كتاب أحسن التقاسيم للمقدسى باسم المحلة الكبيرة»[١].

ومما لا شك فيه أن السكان الذين يعيشون فى هذه المناطق عندما ينتقلون من مكان الى آخر يحملون معهم عاداتهم وأخلاقهم وسلوكهم وقيمهم التى توارثوها جيلا عن جيل ويذهبون بها الى المجتمع الآخر الذى قد يختلف معهم إلى حد ما، فيحاولون من جانبهم رفض ما يتعارض مع سلوكهم وعاداتهم وامتصاص ما يتفق مع طباعهم، ومن خلال عملية التأثر والتأثير تتولد قيم أخرى وقد تغوص عادات لا تتناسب وتطفو أخرى تتفق مع المجتمع الجديد، وطبيعى أن يتولد عن هذا الإختلاط الدائم والاحتكاك المباشر تقارب فى القيم والعادات وأنماط السلوك، وأبرز مثل على ذلك تلك المجموعات التى سجلتها فى أماكن مختلفة ووجدتها فى زفتى.

ويدلنا ذلك على أن الإنتشار هذه تعد نتاجًا طبيعًا للعلاقات الاجتماعية.

كما أن انتشار المصانع بجانب الحياة الزراعية قد أوجد مزيجا من المجتمع الزراعى الصناعى فى هذه المنطقة[٢]، ذلك المجتمع الذى كان يعيش حتى بداية هذا القرن فى بيئة زراعية بحتة بكل ما تحمل من قيم ريفية تعيش على الأمل وتخضع لسلطان الفصول الأربعة، وما يحمله النيل إليها من مياه.

(١) القاموس الجغرافى/ محمد رمزى/ ط دار الكتب سنة ١٩٥٥ ج٢/١٦

(٢) أقصد منطقة مثلث الأرض بين زفتى والسنبلاوين والمحلة.

وتأتى رياح التطور على البيئة الزراعية فتنتشر المصانع ويتحول قطاع كبير من المزراعين إلى الصناعة فتتكون طبقة العمال التى لم تخرج من بيئتها الزراعية، وهكذا يتكون المجتمع المشكّل وتأتى الأمثال لتعبر بصدق عن طبيعة المجتمع الريفى الذى تظهر فيه ملامح المدينة على استحياء دون أن تتضح لأن عشرات السنين ليست شيئا فى عمر الزمن.

* * *

والجدير بالذكر أن التصنيف الموضوعى للمثل لم يكن غريبًا عند العرب. فلقد كان ذلك أحد الوسائل المعتمدة لتنظيم المعلومات، مثلها فى ذلك مثل الترتيب المعجمى فى القواميس والإحصاء الثقافى وذلك كما فى الفهرس لابن النديم وكشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون لحاجى خليفه وغيرها من طرق تنظيم المعلومات وتسجيلها.

ومهما يكن فإن المتصفح لكتاب «نثر الدر» للآبى[1] يجد أنه قد أفرد بابًا كاملا للأمثال التي صنفها موضوعيًا بدأه بقوله:

«هذا الباب نذكر فيه صدراً من أمثال العرب مما يحسن المحاضرة به فى المحاورات وإيراده فى أثناء المكاتبات ويجنس أجناسًا ويتبع فى تجنيسه الألفاظ دون المعانى يقدم فى كل باب ما جاء منها على لفظ أفعل. فإنها أكثر تكررًا فى الكلام والحاجة إليها أمس والناس بها ألهج».

ويلاحظ أن المؤلف أخذ فى ترتيب الأمثال وتصنيفها بطريقة منطقية طريفة تعبر عن إدراك لقواعد التصنيف وأصوله، فقد أدخل الأمثال فى واحد وعشرين بابًا بعضها يدور حول الحيوانات والآخر يدور حول الجمادات، ففى الأبواب الأولى يورد الأمثال التى تتحدث عن الإنسان فيورد الأمثال فى أسماء الرجال وصفاتهم والأمثال فى النساء، الأمثال فى القبائل والآباء والأمهات والشيوخ والصبيان والإخوة والأخوات والأحرار والعبيد والإماء والغلمان.

وفى الباب الخامس يتحدث عن النفس والجسد والأعضاء والجوارح والشفر.

(١) «نثر الدر» للآبى الجزء السادس: الباب الرابع مخطوط برقم ٤٤٢٨ أدب ـ دار الكتب من لوحة ٦١٣ إلى لوحة ٦٣٨ وبها أكثر من ١٦٠٠ مثل.

ومن الطريف أنه عندما يتحدث عن النفس والجسد فإنه يتناولهما بالتفصيل ابتداء من الرأس والعنق فالوجه الذى يشمل العين والأنف والأذن والأسنان والذقن، ثم اليد فالصدر والبطن والقلب والرجل والساق والعرق والذكر والنكاح.

ومن الباب السادس حتى العاشر يتحدث عن الحيوانات كالإبل والخيل والبغال والحمير والبقر والغنم والظباء والأسد والسباع، والوحوش، وتشتمل على العقرب والنمر والكلب والذئب والثعلب.

والباب التاسع فى الهوام والحشرات ومنها الضب والظربان والقنغر والفأر والحوت والحية.

والباب العاشر فى الطيور ضواريها وبغاثها ومنها العنقل والغراب والحبارى والطير.

ومن الباب الحادى عشر حتى الرابع عشر بها أمثال عن الأرض والسماء والهواء والشمس والقمر والكواكب والجبال والرمال والحجارة والبلدان والمواضع والماء والنار والزناد والتراب والبحر والسحاب، والرعد والبرق، والرياح والسراب والمطر والثلج والسيل والنسيم والشجر والروضة والصمغ والنبات والمرعى والشوك.

ومن الباب الخامس عشر حتى العشرين بها أمثال يتحدث عن أشياء يستعملها الإنسان كالذهب والفضة والحديد والسيف والرمح وأصناف السلاح والحرب والقتل والأسر والجبن والفزع والشجاعة والفرار والغزو والصياح والثياب واللباس والخف والأدم والقدر والآنية والدّول والسقاء والوعاء والعطر والرحا والطعام والأكل والشرب واللبن وسائر المأكولات والمشروبات والمال، والنوم والملل والطب والمنية والدواهى.

أما الباب الحادى والعشرون ففيه الأمثال الأفراد، وهى التى لم يستطيع أن يدخلها فى الأبواب السابقة وهى قليلة لا تزيد عن عدة سطور فى اللوحة ٦٣٧.

أما ابن عبد ربه فى كتاب العقد الفريد[1] فقد صنف مجموعة من الأمثال لا

(١) تحقيق محمد سعيد العريان ج٣ من ص١ ـ ٨٣ ط سنة ١٩٤٠.

تختلف فى طريقتها عن كتاب نثر الدر، فقد أورد مجموعة من الأمثال المنسوبة للرسول (ﷺ)، أمثال روتها العلماء، من ضرب به المثل من الناس، من ضرب به المثل فى النساء، ما تمثلوا به من البهائم، من أمثال العرب، فى الصمت، القصد فى المدح، صدق الحديث، من أصاب مرة وأخطأ مرة، سوء المسالة وسوء الإجابة، كتمان السر، انكشاف الأمر بعد اكتمامه، إبداء السر، الدعاء بالخير، الدعاء على الإنسان، اللهو والباطل، المكر والخلابة، الذل بعد العز، تأديب الكبير، أمثال الجماعات، ومن أمثال التمنن على الأقارب، تحاسد الأقارب، قولهم فى الأولاد، أمثال فى مكارم الأخلاق، الجشع والطمع، البخل.

ولقد تساءلت كثيراً عن الأسباب التى دفعت المحدثين أجانب ومصريين وشرقيين إلى الإصرار على الترتيب المعجمى، ويبدو أن المستشرقين لظروف خاصة بهم ساروا فى هذا الأتجاه فجاء الشرقيون على النمط المتبع ولو مدوا البصر قليلا لوجدوا أن الأقدمين قد فطنوا إلى الأهمية العلمية للتصنيف الموضوعى كالآبى وابن عبد ربه اللذين أشرت إليهما بايجاز، فلقد كانت المجموعات التى صدرت منذ بداية القرن الثامن عشر حتى الآن تسير على الترتيب المعجمى، ذلك لأنه أسهل منالا وأقل إرهاقا من التصنيف الموضوعى، هل نقتدى بصاحب «نثر الدر» الذى صنف حسب الظواهر الطبيعية والملامح الظاهرية الموجودة فى المثل؟ وإذا كان الأمر كذلك فهل هناك تشابه فى الوظيفة المثلية عند القدماء وعندنا؟

فالواضح أن المثل الشعبى يؤدى وظيفة يومية ويعبر عن علاقات اجتماعية فى حين أن المثل العربى لم يكن ينظر إليه إلا على أساس أنه «مما يحسن المحاضرة به فى المحاورات وإيراده فى أثناء المكاتبات.. إلخ مما أشار إليه صاحب «نثر الدر».

هذا ولما كان المثل الشعبى يؤدي وظيفة اجتماعية يومية فقد أصبح طبيعيًا أن يظهر فيه ما يعبر عن تلك الوظيفة اليومية التى لا تدخل فى عناصرها الوحوش وحيوانات الغابة والجبال والرمال والحجارة والسيف والرمح وغيرها من العناصر التى لا تعبر عن المجتمع المصرى.

ومن هنا كان علينا أن ننظر ناحية المادة نفسها باعتبار أنها هى التى تصنف نفسها، وقد أدى ذلك إلى تكوين رءوس موضوعات مستمدة من اتجاه المجموعة

نفسها، وبقيت بعد ذلك مجموعة من الأمثال التى ليس لها مكان محدد لأنها متعددة الإنتماء فالمثل الذى يعبر عن السخرية قد يعبر فى الوقت نفسه عن الأسف والأسى، والمثل الذى يعبر عن النصح قد يعبر عن التحذير، والمثل الذى يعبر عن السخرية قد يعبر عن التناقض والدهشة من اختلاف الأحوال، والمثل «الداخل بينهم خارج» يصلح لعدة أماكن والمثل «العين بصيرة والإيد قصيرة» كسابقه.

لذلك فقد كان لابد من أن تكون هذه الموضوعات متجاورة وتحت عنوان كبير لوجود الالتحام والتكامل، مع مراعاة تناسق التصنيف الداخلى مع رءوس الموضوعات بقدر الإمكان.

وفى اعتقادى أن التصنيف خطوة هامة وضرورية فى طريق الدراسة والبحث، بل إنه قد يؤدى دور الدراسة السريعة التى تعطى ملامح كلية أو تعطى نظرة شاملة للموضوع.

وقبل أن أترك الموضوع أحب أن أشير إلى أن هذه المجموعة تكمل المجموعات السابقة وليست تكرارًا لما فيها، وقد كنت أقوم بالعمل وأمامى أهم المجموعات السابقة وأقربها إلى عصرنا، وهى مجموعة تيمور، ولذلك فقد تجنبت تكرار ما ذكره تيمور إلا بنسبة ضئيلة، بل إن هناك أمثالا شهيرة فى كل أنحاء البلاد وتحاشيت كتابتها على اعتبار أنها وردت فى تيمور، ومنها المثل «القرش الأبيض ينفع فى اليوم الأسود» وغيره كثير.

وقد لا نبالغ إذا قلنا إن هذه المجموعة الميدانية تمثل الشعب المصرى سياسيًا واقتصاديًا وتاريخيًا وجغرافيًا وثقافيًا أصدق تمثيل، ونحن إذ نقدم هذه المجموعة نتمنى إن تمعن القيادات السياسية والثقافية النظر فيها، فربما وجد فيها أحد المسئولين مثلا واحدًا يوضح أمامه الرؤية عند اتخاذ القرار، ذلك لأن مصر تعرض نفسها بوضوح وصدق فى هذه المجموعة، وهى هنا لا تضع قناع المثقفين والعلماء، ولكنها تقدم نفسها بإيجابياتها وسلبياتها، ولذلك فإن الرؤية هنا أوضح ومن ثم يكون القرار أصوب ومصر هنا ليست مصر الجغرافيا أو التاريخ فحسب ولكنها مصر الإنسان فى الماضى والحاضر والمستقبل.

ومصر ثرية برجالها وهم ثروتها الحقيقة وتجربتى فى الخارج أكدت لى أن المصرى يتمتع بدرجة كبيرة من الذكاء والنشاط والحيوية وقد أعلن ذلك معهد جالوب، وانتبهت الدول المتقدمة إلى ما يتمتع به المصرى من ذكاء فطرى كامن، ففتحت له أبوابها. ووصل الى أعلى المراكز العلمية والفكرية فى الوقت الذى يئن فى بلده من أوجاع وأمراض اجتماعية وإدارية لا دخل له فيها، وأعتقد أنه لم يتيسر له حتى الآن أن يمتلك زمام أموره بنفسه، فقد خلف له الاستعمار الذى امتد عشرات القرون أمراضًا أعتقد أنها قابلة للزوال، وهى أمراض ظرفيه منها الحسد والنفاق والانتهازية والسلبية وعدم الانضباط، ولكنه يتميز بلمسات حضارية ليست عند كثير من الشعوب ويمكن تلمس هذه الأشياء عند الطبقات الشعبية التى تتعامل بفطرتها وتلقائيتها.

وبعد فإنى لا أريد أن أزيد فى هذه القضايا فربما نتعرض لها فى الجزء الثانى من هذه الموسوعة وفى الختام فإنى أرجو من الله العلى القدير أن أكون قد وفقت إلى تسجيل وتقديم هذه النصوص الميدانية قبل أن يطويها الزمن. والكمال لله وحده.

القاهرة فى ٣/ ٢/ ١٩٨٥ **المؤلف**